محكم

التأويل الرمزي للثقافة:

في التداخل المعرفي بين الأنثروبولوجيا والسيميولوجيا

يونس الوكيلي
باحث مغربي

قسم الدراسات الدينية

جميع الحقوق محفوظة
مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث
All rights reserved
Mominoun Without Borders

ملخص الدراسة:

اهتم الباحث في هذه الدراسة بعرض النظرية التأويلية للأنثروبولوجي الأمريكي كليفورد غيرتز، وذلك انطلاقاً من مقالة شهيرة للمؤلف، يبسط فيها موقفه الأنثروبولوجي بعنوان: "الوصف الكثيف: نحو نظرية تأويلية للثقافة". واعتمد الكاتب التسلسل المنقطي في ترتيب الأفعال العلمية: نقد مفهوم الثقافة السائد حينئذ، المتمثل في المدرسة البنيوية والنفسية. ومفهوم الوصف الكثيف كممارسة متجددة للإثنوغرافيا، وفحوى سيميائية الثقافة، وما تقتضيه من أن الإنسان حيوان عالق في شبكات رمزية، نسجها بنفسه حول نفسه. والأنثروبولوجيا، كبحث في الثقافة، يجب ألا تكون علما تجريبيا يبحث عن قانون، بل علماً تأويلياً يبحث عن معنى. وأخيراً شروط اشتغال التأويل الثقافي التي لخصها جيرتز في شرطين؛ هما: استحالة التعميم، واستحالة التنبؤ.

مقدمة:

هذه الدراسة قراءة تركيبية في نظرية التحليل الثقافي في الأنثروبولوجيا، من خلال مؤسسها الباحث الأمريكي كليفورد غيرتز(1926-2006). ولحسن الحظ، فإن "الوعي الأكاديمي" لغيرتز وفّر على الباحث جهداً كبيراً لإنجاز تلك القراءة، سيما وأنه خصص في كتابه "تأويل الثقافات" فصلاً أولاً بعنوان: "الوصف الكثيف: نحو نظرية تأويلية للثقافة"، لبسط موقفه الأنثروبولوجي والمقولات العامة[1] التي تؤطر نظرياً كل إنتاجه العلمي. وإذ إن الفصل كتب متأخراً زمنياً عن باقي الفصول، نزولاً عند طلب المحرر في دار "بايزك بوكس" من المؤلف جمع المقالات وإصدارها في كتاب، فإنه بمثابة تقديمٍ حاول توضيح اتجاه الفكر بشكل منهجي، أو كما يقول غيرتز، هو "محاولة لقول ما كنت أحاول قوله".[2]

لا تخلو هذه الدراسة من مغامرة في سعيها إلى لَمِّ تنظيرات غيرتز بغير العرض الذي اختاره لنفسه، لكن من الضرورة القيام بهذه القراءة الإجرائية التنظيمية؛ فالقارئ عموماً لغيرتز لا تخفى عليه صعوبة متابعة إحدى فِكَره؛ فقد يحدث أن يبدأ فكرة، ويلج إلى أخرى، ثم يعود إلى الأولى، وهكذا دواليك. وحيناً يعالج موضوعاً، ثم تجد في موضعٍ آخر إشارة عميقة للموضوع الأول، لا يسع الباحث تجاهلها البتة. هذا فضلاً عن الأسلوب المشبع بالعبارة الطويلة النابضة، المُلبسة للمعنى، كلياً أو جزئياً، في الوقت الذي يفضل المختصون في العلوم الاجتماعية وجيز الجُمل وباردها. هذه كلها دواع تجعل من التصدي لإعادة ترتيب تفكير غيرتز حول نظرية الثقافة، ضرورة منهجية لا محيص عنها.

نسلك لأجل ذلك التسلسل المنطقي في ترتيب الأفعال العلمية: كيف انتقد غيرتز نظريات الثقافة السائدة؟ ما هي خصائص التأويل الثقافي المقترح؟ وما هي شروط اشتغاله؟

أولاً: نقد مفهوم الثقافة

تقتضي كل إعادة تعريف رصد الثغرات التي يحتملها المفهوم السائد قبل مباشرة البناء. وإذا كان مفهوم الثقافة مركزياً في حقل الأنثروبولوجيا[3]، فإن المدارس الكبرى السائدة لم تكن مقنعة لغيرتز بصدد تناولها لمفهوم الثقافة. ويرجع تلك المدارس- على وجه العموم- إلى اتجاهين:

---

[1]- غيرتز كليفورد، تأويل الثقافات: مقالات مختارة، ترجمة محمد بدوي، مراجعة الأب بولس وهبة، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، بيروت، 2009، التقديم الخاص بطبعة العام 2000، ص 69

[2]- المصدر نفسه، ص 75

[3]- توقع تالكوت بارسونز، الباحث في جامعة هارفارد في خمسينيات القرن الماضي، أنه سيحصل تقسيم للعمل في العلوم الاجتماعية: تدرس السوسيولوجيا النظام الاجتماعي، وتغطي السيكولوجيا الفرد ونظام الشخصية، وتهتم الأنثروبولوجيا بالنظام الثقافي، وكما يروييروي سيديل سيلفرمان، في سنة 1958

أ- المدرسة البنيوية:

تلقي المدرسة البنيوية بالثقافة في خضم الدراسة التنظيمية المفرطة (Schematicism)، فتعتبر الثقافة تدويناً لقواعد منهجية، وجدولة خوارزمية عِرقية من شأنها، في حال اتبعت تمكين الأجنبي، من التصرف بطريقة تجعله يبدو وكأنه من أهل البلاد الأصليين[4]، أو بتعبير ستيفن تايلور أحد أبرز المدافعين عن هذه المدرسة، أن "الثقافة تحتوي على مظاهر عقلية، يمكنها أن تحلل عن طريق مناهج شكلية مشابهة للمناهج المستعملة في علم الرياضيات والمنطق".[5]

إزاء هذه المعالجة، يرى غيرتز أن تناول الثقافة "بصفتها نظاماً رمزياً بحتاً (والعبارة الشائعة في هذا المجال تقول بدراسته «بحسب شروطه الخاصة»)؛ أي بعزل عناصره وتحديد العلاقات الداخلية بين هذه العناصر، ومن ثم توصيف النظام برمته بطريقة عامة – أي بحسب الرموز الأساسية التي تنتظم الثقافة حولها أو بحسب البُنى العميقة التي تشكل الثقافة التعبير السطحي عنها...إلخ، عُرضة لخطر حقيقي يكمن في احتمال عزل تحليل الثقافة عن موضوع دراستها الأصيل، ألا وهو دراسة المنطق غير الرسمي للحياة الواقعية.[6]

ب- المدرسة النفسية:

تقابل المدرسة النفسية نظيرتها البنيوية، في كونها تلخص مفهوم الثقافة في الدراسة النفسية المغرقة (Psychologism)، وتعتقد أن الثقافة مكوَّنة من تركيبات نفسية يستدل بها الأفراد أو المجموعات في سلوكاتهم، بصيغة أخرى، تعتقد بوجود الثقافة في عقول الناس وقلوبهم، على حد تعبير وارد غود إينف.[7] إزاء هذا الموقف يعتبر غيرتز أن الثقافة، تلك الوثيقة المتمثلة في الأفعال، هي شيءٌ علني، وليس بالفكرة الباطنية.[8] كما أن المعنى هو شيء ظاهر علني، فأنت لا يمكنك الغمز (أو تقلد غمزة ساخرٍ) من دون أن تكون عالما بما

أصدر بارسونز وكروبر بيانا مشتركا لتقسيم العمل في العلوم الاجتماعية، فكان المجتمع والنظام الاجتماعي مجال السوسيولوجيا وتترك الثقافة لعلماء الأنثروبولوجيا، ورغم فشلهم في الحصول على تأييد عالمي إلا أنهم أثروا في الأسلوب الذي اعتمده العلماء من بعدهم في النظر إلى الثقافة. انظر:

One Discipline, Four Ways: British, German, French, and American Anthropology. By Fredrik Barth, Andre Gingrich, Robert Parkin and Sydel Silverman With a Foreward Chris Hann. University of Chicago Press , 2005.p 284

قام، أيضا، تيري إيجلتون بجمع التعريفات المتعددة لمفهوم الثقافة، انظر: إيجلتون تيري، فكرة الثقافة، ترجمة شوقي جلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2012، ص 13

[4]- المصدر نفسه، ص 93

[5]- المصدر نفسه، ص 95

[6]- المصدر نفسه، ص 104

[7]- المصدر نفسه، ص 93

[8]- غيرتز، التأويل، ص 91

هي الغمزة وبكيفية القيام بها؛ أي جسدياً، قبض جفن العين إلا أنه لا يمكننا، بأي حال من الأحوال، أن نستخلص من هذه الحقائق أن معرفتنا بطريقة الغمز هي الغمز ذاته[9]. من هذا المنطلق، ليس من الجدير البحث في أنطولوجية الثقافة أو طبائعها، لأن السلوك البشري عمل رمزي ينتمي إلى هذا العالم المكشوف، من حيث المبدأ. تتلفع هذه المدرسة بعناوين متعددة، مثل: علم الأعراق Ethnoscince أو التحليل التكويني Componential Analysis أو الأنثروبولوجيا المعرفية Cognitive Anthropology.[10]

في الحالتين معا نحن أمام، إما شكلانية مفرطة أو ذاتية مفرطة،[11] وبدل النظر إلى الثقافة بطرق هروبية[12]، "كتحويلها إلى فلكلور وتجميعها، أو تحويلها إلى خصائص وحسابها، أو تحويلها إلى عادات متبعة وأعراف وتصنيفها، أو تحويلها إلى بُنى واللعب بها"[13]، فإن البحث يجب أن يُعنى بالتوجه نحو "الدور الذي تلعبه الأشكال الرمزية في حياة الإنسان(...) إلى «المعنى»، ذلك الكيان المزعوم الذي يروغ عن التحديد، والذي كنا في ما مضى نرضى بتركه للفلاسفة ونقاد الأدب يتلمسونه".[14]وهذا التحول نحو «المعنى» في فكر غيرتز حتمه تأثره بالنظرية السيميائية، بعدما قضى وقتا ليس قصيراً متأثراً بالنظرية الوظيفية،[15] على يد تالكوت بارسونز، أثناء دراسته في جامعة هارفارد.[16]

ثانياً: الإثنوغرافيا وصفٌ كثيفٌ

من مقتضيات النقد، أن يشمل كل مراحل العمل الأنثروبولوجي، وعلى رأسه منهج جمع المعطيات، المعروف بين المتخصصين باسم الإثنوغرافيا. يدعو غيرتز إلى تجاوز الإثنوغرافيا التقليدية التي تقوم على: إقامة علاقة وُدّ وانسجام، اختبار المخبرين، تدوين النصوص، تحديد الأنساب، رسم خرائط الحقول، تدوين المفكرة اليومية، وهلمّ جرّا. كل هذه التقنيات عند غيرتز لا تحدد ماهية المهمة، إن ما يحدد المهمة هو نوع

---

[9]- المصدر نفسه، ص 93

[10]- المصدر نفسه، ص 93

[11]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[12]- المصدر نفسه، ص 125

[13]- غيرتز تأويل،الصفحة نفسها

[14]- المصدر نفسه، ص 126

[15]- المصدر نفسه، ص 74

[16]- من المعروف أن غيرتز وشنايدر انتقلا للتدريس في جامعة شيكاغو، قادمين من جامعة بيركلي، وشكلا هناك قسم الأنثروبولوجيا، في اتجاه نظرية النُظم البارسونزية، وأصبحت معقلا للأنثروبولوجيا الرمزية، وفيما بعد سنة 1970 سينتقل غيرتز إلى معهد برينستون. انظر:

One Discipline, Four Way, By Fredrik Barth, Andre Gingrich, Robert Parkin and Sydel Silverman With a Foreward Chris Hann. Op.,cit. , p, 2005, p 287

الجهد الفكري المبذول: إنها المغامرة المدروسة بعناية، فيما يسمى بـ "التوصيف الكثيف"[17]، وهو مفهوم استعاره عن الفيلسوف الإنجليزي جيلبرت رايل (1900-1976). ولأجل التطرق إلى فحوى هذا المفهوم ومقتضياته التحليلية، نقف عند المثال البالغ الدلالة الذي يورده.

أ- رفة الجفن:

ينقل غيرتز عن رايل: "لنفرض أن هناك ولدين كل منهما يرف عينه اليمنى بسرعة. أحد الولدين كانت رفة عينه اختلاجة طبيعية لا إرادية، بينما كان الولد الآخر يغمز بعينه لزميل له غمزة ماكرة؛ فإذا نظرنا إلى حركة عيني الولدين، وجدنا أن الحركتين متماثلتان من حيث المظهر؛ فمن حيث المظهر فقط، لن يمكن للمرء أن يحزر أيهما اختلاجة طبيعية لا إرادية، وأيهما غمزة ماكرة، أو إذا ما كانت كلتا الحركتين اختلاجات أو غمزات.

إلا أن الفارق بين الاختلاجة اللا إرادية والغمزة الماكرة فرق شاسع، وإن كان لا يمكن ملاحظته ظاهراً، كما يستطيع أن يشهد كل من كان ضحية لمثل هذا الجهل بالفارق بين الحركتين؛ فالغامز بغمزته يقوم بعمل تواصلي موصوف، وهو يقوم به بطريقة محددة وخاصة: (1) الغمزة عمل متعَّمد، (2) وهو موجّه إلى شخص محدد، (3) وهو يبعث برسالة خاصة، (4) يتماشى مع كود(رمز، شيفرة) اجتماعي متعارف عليه، و(5) يتم من وراء ظهر الأشخاص الموجودين. وكما يشير رايل، فإن الغامز قام بعمليتين، فهو رفَّ جفنه وغمز، بينما لم يقم المختلج سوى بعمل واحد هو رفَّة الجفن؛ فأنت عندما ترف جفنك عمداً بوجود كود اجتماعي معروف، ينظر إلى هكذا عمل على أنه إشارة تآمرية، فإن هذه الرفَّة توصف بأنها غمزة. وهذا كل ما في الأمر: جزئية سلوكية زائد ذرة ثقافية، و-هاكم!- أصبح لدينا إيماءة.[18]

مقابل هذا "التوصيف الكثيف" يأتي "التوصيف الخفيف"، ومرة أخرى من الضروري العودة إلى المثال: "لنفرض أن هناك ولداً ثالثاً أراد أن يسلي زملاءه تسلية شريرة، فأخذ يقلد تقليداً ساخراً رفة جفن الولد الأول، ويكون تقليده ذاك تقليد هاو أخرق واضح التقليد...إلخ. وهو في ذلك بالتأكيد، يقوم بالعمل بطريقة غمزة الولد الثاني نفسها واختلاجة الولد الأول؛ أي برفة جفن العين اليمنى. إلا أن هذا الولد ليس بالغامز ولا المختلج؛ فهو ليس إلا مقلداً لحركة شخص آخر، وما هي إلا محاولة تهكمية للغمز. وفي هذه الحالة أيضا، هناك كود اجتماعي متعارف عليه (الغمزة ستكون متصنعة، واضحة التصنع، وربما يضيف إليها الولد تقطيبة في وجهه- كما يفعل

[17]- المصدر نفسه، ص 83

[18]- المصدر نفسه، ص ص 84-85

المهرج). كما إن العمل يحوي أيضا في طياته رسالة ما، والفارق بين الحالتين هو أنه ليس هناك تآمر ماكر في العمل، بل سخرية هازئة؛ فإذا ما أساء الآخرون فهم الدافع وراء العمل، وظنوا أنه يغمز فعلاً، فإن مشروعه يفشل بالكامل. كما أن المشروع سيفشل أيضا، وإن كان بنتائج مختلفة نوعا ما، إذا ما ظن الآخرون أن رفّة جفنه هي اختلاجة لا إرادية.(...) ويمكن للتعقيدات أن تمضي إلى ما لا نهاية، إذا لم يكن عمليا، فعلى الأقل من الناحية النظرية المنطقية.[19]

إن الوصف الخفيف لا يستطيع أن يفرق بين الساخر أو الغامز أو المختلج أثناء تحريك جفن العين اليمنى برفات سريعة، بينما الوصف الكثيف يمّكن من ذلك، وبهذا المعنى يصبح هذا الوصف عند غيرتز متجاوزاً للتصور التقليدي، ومرادفاً لموضوع الإثنوغرفيا التي يتجدد مفهومها، ليصير عنده ذلك الترتيب الطبقي الهرمي لتراكيب ذات معنى، تنتج حركات مثل الاختلاج والغمز والغمز المزيف والتقليد الساخر...إلخ، وتقدم تفسيراً لكل هذه الحركات، وكيف ينبغي فهمها والنظر إليها.[20]

ب- استعصاء المقولة الإثنوغرافية:

لا يعني هذا أن العمل الإثنوغرافي طيّع يسير، إذ إن الإثنوغرافي يواجه "الكثرة في التراكيب المفهومية المعقدة التي يكون الكثير منها متراكباً ومتشابكاً بعضها مع البعض الآخر، والتي هي غريبة، وغير منتظمة وغامضة، وعليه أن يجهد أولا لفهمها واستيعابها، ومن ثم تقديمها للقارئ[21]. هكذا تغدو المقولة الإثنوغرافية "قابلة للتحدي أساسا"، وهذا التحدي من صميم المقاربة التأويلية للثقافة[22] التي تتصف دوما بعدم الاكتمال، بل والأسوأ من ذلك أنه كلما ازداد البحث عمقا ازداد نقصا.[23]

هذا مآلٌ طبيعي إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الإثنوغرافي مجرد مدوّن للخطاب الاجتماعي، وهو عندما يفعل ذلك يحول هذا الخطاب من مجرد حدث عابر، لا يوجد إلا في لحظة حصوله، إلى حكاية مكتوبة يمكن العودة إليها لاحقا لدراستها من جديد. إن ما يكتبه الإثنوغرافي في فعل التدوين – على حد تعبير بول ريكور- هو «المعنى» أو «الفكرة» أو «المحتوى» أو «اللبّ» للقول. في كلمة واحدة: معنى حدث الكلام، وليس الحدث

---

[19]- المصدر نفسه، ص 85

[20]- المصدر نفسه، ص 86

[21]- المصدر نفسه، ص 91

[22]- المصدر نفسه، ص 125

[23]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

نفسه"[24]. ما ندونه ليس خطاباً اجتماعياً خاماً على طبيعته(...) بل إنه لا يعدو أن يكون ذلك الجزء الصغير الذي يقودنا مخبرونا إلى فهمه.[25]

تتقلص في نهاية المطاف وظيفة الإثنوغرافي إلى مجرد تقديم المفردات التي يمكن بواسطتها التعبير عما يعبر عنه الفعل الرمزي عن نفسه[26]. ولا ينبغي للإثنوغرافي أن يخجل من ذلك، نحن لا نقوم إلا بالتأويل والشرح: والأسوأ من ذلك، نحن لا نقدم إلا شرحاً على شروح. والأمر لا يعدو كونه غمزاً فوق غمزٍ، فوق غمزٍ.[27] مع ذلك، تبقى هذه العملية معقدة للغاية بالنظر إلى عمليتي الانتقاء والإقصاء التي تميز بناء المعرفة العلمية. التأويل ليس إلا لعبة تقديم لبعض المفاهيم، والأحداث، وتأخير أخرى.

إن مفهوم الوصف الكثيف حيلة منهجية للولوج إلى المفردات التي يعبر بها المحليون عما هو عادي بالنسبة لهم؛ وبدل تبني المنظور الأنثروبولوجي الكلاسيكي، في اهتمامه بما هو طريف وجذاب وعجيب وغير عادي[28]. ينبغي للإثنوغرافي أن ينظر إلى ذلك الفعل العادي الذي اتخذ أشكالاً غير مألوفة، على أنه يبرز الدرجة التي يختلف فيها المعنى نسبة إلى نمط الحياة الذي يكسبه الدلالة.[29] إن فهمنا لثقافة شعب ما، يجب أن يكشف كم هي طبيعية(...) ويزيل الغشاء الكثيف الذي يغطيها، ويمنعنا من رؤيتها على حقيقتها.[30] الوصف الكثيف يجعل الأنثروبولوجي يجد موطئ قدمه داخل الثقافة، كما ينقل غيرتز عن فيتجنشتاين.[31]

ثالثاً: الثقافة تأويل سيميائيٌ

كما أن كليفورد غيرتز قام بإعادة تعريف الإثنوغرافيا، باعتبارها ذلك العمل الأولي الذي يقوم به الأنثروبولوجي، ويمهد لإنشاءاته النظرية، ويجسر منهجياً الوصول إلى الثقافة؛ فقد قام أيضا، بإعادة النظر في مفهوم الثقافة بعد أن انتقد المدارس السائدة منها، في خطوة أولى، كما رأينا سابقا. وتتجلى إعادة الصياغة على الأقل في سمتين، إحداهما مضمونية، والأخرى منهجية:

---

[24]- المصدر نفسه، ص ص 107- 108

[25]- المصدر نفسه، ص 109

[26]- المصدر نفسه، ص 122

[27]- المصدر نفسه، ص 90

[28]- المصدر نفسه، ص 98

[29]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[30]- المصدر نفسه، ص 99

[31]- المصدر نفسه، ص 97

أ- سيميائية الثقافة:

سبق أن أشرنا إلى مدرستين أساسيتين انتقدهما غيرتز، وهو نقد لا يتجزأ عن بناء النموذج البديل لمفهوم الثقافة والأنثروبولوجيا؛ فالبنيوية تتجاهل أن الأشكال الثقافية، وهي عبارة عن سلوك ظاهر، تستمد معناها من الدور الذي تلعبه في نمط حياة جارٍ، وليس من أية علاقة داخلية صحيحة بين بعضها والبعض الآخر(...)؛ فمهما كانت الرموز، ومهما كانت مكانتها من «شروطها الخاصة»، فلن يمكننا الوصول إليها إلا بتفحُّص الأحداث، وليس بترتيب كيانات مجردة ضمن أنماط موحدة".[32] على التأويل الأنثروبولوجي ألاّ يفصل قراءته عما يحصل من أفعال في العالم الواسع.

والنفسية تتجاهل أن الثقافة تعبير ظاهر لتلك الأشكال الثقافية، وليس شيئا مخبوءًا في مكان ما. حالما ننظر إلى السلوك البشري على أنه عمل رمزي (...) مثله في ذلك مثل إصدار الأصوات في الكلام، والتلوين في الرسم، والخط في الكتابة، أو التنغيم في الموسيقى؛ فإن التساؤل حول ما إذا كانت الثقافة حالة عقلية، يفقد مغزاه[33]، كما يفقد بنفس الدرجة جواب نمطية الثقافة كل جدواه.

وعلى هذا الأساس، يخلص غيرتز إلى تعريف الثقافة على النحو السيميائي (Semiotic) التالي: "شبكة من أنظمة الإشارات (Signs) القابلة للتفسير والتأويل، ليست قوة قاهرة، وليست شيئاً تعزى إليه سببيًا أحداث مجتمعية أو سلوكات أو مؤسسات اجتماعية أو سيرورات عملية؛ بل هي نسق يمكن من ضمنه إجراء توصيف كثيف قابل لفهم هذه الأشياء".[34]

لا يخفي غيرتز أن هذا التعريف يتأسس على تراث ماكس فيبر: «أن الإنسان حيوان عالق في شبكات رمزية، نسجها بنفسه حول نفسه».[35] وبالتالي يندرج هذا التعريف فيما يمكن وصفه بـــ "رؤية الأشياء من وجهة نظر الفاعل"، أو إذا أردنا أن نصفها بشكل أكاديمي "كُتبي" مغرق، نقول إنها مقاربة تأويلية أو نصفها تقنيا بأنها تحليل من الداخل.[36] الثقافة بهذا الشكل هي تلك الشبكات، وتحليلها يجب ألا يكون علما تجريبيا يبحث

---

[32]- المصدر نفسه، ص 103

[33]- المصدر نفسه، ص 92

[34]- المصدر نفسه، ص 98

[35]- المصدر نفسه، ص 82

[36]- المصدر نفسه، ص 99

عن قانون، بل علما تأويليا يبحث عن معنى.[37] عملية التحليل، إذاً، ما هي إلا ترتيب وفرز للتراكيب التي تحمل المعاني، وتحديد أرضيتها الاجتماعية ومغازيها.[38]

في موضع آخر، يفصح غيرتز عن تجليات المقاربة السيميولوجية التي تذكر بمؤسسي السيميولوجيا من قبيل غريماس أو بيرس أو ريكور، حينما يماثل بين النسيج الثقافي للمجتمع الغريب، و"نص" مكتوب نحتاج لفك رموزه، يقول: "إن القيام بالدراسة العرقية يشبه محاولة قراءة مخطوط أجنبي غريب، باهت الخط، تعتوره الفراغات وانعدام التماسك(...)، والتقنيات المشبوهة، والتعليقات المنحازة"[39]. كل ما يستطيع الباحث فعله إذاً، هو محاولة فك الشيفرات، وحل خيوط شبكة الرموز عن طريق التأويل، والمنهج في ذلك جماليٌّ لا يختلف عن تحليل قصيدة أو لوحة تشكيلية أو قطعة موسيقية.[40]

إن الحكمة من المقاربة السيميائية للثقافة، هي أنها تساعدنا في فتح الطريق إلى العالم المفهومي الذي تعيش فيه موضوعاتنا، حيث نتمكن، بالمعنى الواسع للكلمة، من إقامة محادثة معها(...)[41]، وتحقيق المهمة الكبرى للأنثربولوجيا؛ أي: توسيع فضاء الخطاب الإنساني، عبر التحادث مع السكان الأصليين، و"الاتصال مع الكون التخيّلي الذي يعملون فيه، وتكون لأفعالهم صفة الإشارات".[42] وبالتالي الرهان في اختلاجة العين على سبيل المثال، كفعل علني ظاهر، يتمثل في أن نبحث هل هي فعل سخرية أم تحدٍ، هل هي فعل تكبر أو غضب، هل هي من نوع التباهي والتكبر؛ فالسؤال إذًا، هو: ما الذي يجري التعبير عنه عند القيام بهذه الأشياء، عماذا نعبر عندما نقوم بهذه الأشياء؟[43] هاهنا تتجلى مهارة الأنثروبولوجي في مقدرته على إلقاء الضوء على ما يحصل في الأماكن النائية [من قصص]، وعلى التخفيف من شعور الحيرة التي تنتاب القارئ تجاه أفعال غريبة عنه، تجري في بيئات غير معروفة لديه.[44]

---

[37]- المصدر نفسه، ص 82

[38]- المصدر نفسه، ص 90

[39]- المصدر نفسه، ص 91

[40]- Cefai Daniel, «Anthropologie interpretative. Les perspectives esthétique, clinique et herméneutuque du Clifford Geertz», In D'Islam et D'ailleurs: Hommage à Clifford Geertz.(dir) Mohammed Kerrou, Cérès éditions, 2008. pp 15-47

[41]- المصدر نفسه، ص 117

[42]- المصدر نفسه، ص 98

[43]- المصدر نفسه، ص 92

[44]- المصدر نفسه، ص 102

ب- تجريدية الثقافة:

يعي غيرتز جيداً، أن الإثنوغرافي لا يكتب سوى " معنى حدث الكلام، وليس الحدث نفسه"،[45] حيث تلقف هذا التمييز عن بول ريكور، أحد مؤسسي «المنحى اللغوي» و«المنحى الثقافي»، اللذين كانا لهما الأثر الكبير في الكتابة التاريخية والأنثروبولوجية، أواخر القرن العشرين[46]، وشكّل مرجعاً مهماً، خاصة في تناوله لمفهوم الفعل الذي يرتبط عنده بمفهومي اللغة الحية والخطاب؛ فاللغة هي منظومة متطورة لا زمنية، وعلاماتها لا تشير إلا إلى علامات داخلها، وفيها تكمن ثروات ومقومات تجعلها خلاّقة، وأهمها ابتكار الاستعارة والمجاز، وصوغ أنماط الخطاب؛ أما هذا الأخير، فهو وليد حدث فعلي تواصلي، مرتبط بأفراد في وقت معين، مشدودين إلى مجال يتطلب الوصف والتعبير والتمثيل[47]. وبسبب التشابه بين الفعل والخطاب، إذ لكل فعل تعبير كلامي، ولكل خطاب تعبير غير كلامي، تخضع الأفعال مثل الخطابات للتأويل، وهي مفتوحة على معانٍ لا يحددها بالكامل فاعلوها والمتعرفون إليها بالمشاهدة أو السماع أو القراءة.

وعلى الرغم من وجاهة هذا التمييز، فإنه مأزق إبستمولوجي للباحث الأنثروبولوجي، ذلك أنه يترتب عليه نتيجة مربكة، حيث يصبح التحليل الأنثربولوجي معرضٌ للتنقيص من مصداقيته، كونه" تحوير مفهومي للحقائق المكتشفة (...)، وتقديم لقطع متجمدة متناظرة من المعاني، مطهرةً من التعقيد المادي الذي هي موجودة فيه، ومن ثم إرجاع وجودها إلى مبادئ نظام ذاتية، والتي هي الصفات الكونية للعقل البشري أو المفهوم الكُلي للعالم، إن هذا التقديم بمثابة ادعاء علم غير موجود، وتخيل واقع لا يمكن أن يوجد.[48]

هذا ما يحاول غيرتز تلافيه - وهو يعترف به، ولا يشكل له أي إزعاج شخصي- من خلال تأمين مخرج معرفي، فيميز بين موضوع الدراسة والدراسة نفسها؛ فنحن نبدأ الدراسة من منطلق تأويلاتنا الخاصة لنيات مخبرينا(...)، ومن ثم نحاول تحليل هذه التأويلات وترتيبها بشكل منهجي؛ فمثلا هناك فرق بين الثقافة المغربية، بوصفها واقعاً طبيعياً، والثقافة المغربية بوصفها كياناً نظرياً[49]، وهذا احتراز شديد الأهمية، حتى لا نحسب أن "وجهة نظر الفاعل" تطابق الواقع حتماً.

---

[45]- المصدر نفسه، ص 108

[46]- فرّو قيس ماضي، المعرفة التاريخية في الغرب: مقاربات فلسفية وعلمية وأدبية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، بيروت، 2013، ص 64

[47]- المصدر نفسه، ص65

[48]- المصدر نفسه، ص 109

[49]- المصدر نفسه، ص 100

باختصار، كما يقول غيرتز، "إن الكتابات الأنثروبولوجية لن تكون إلا تأويلات من الدرجة الثانية أو الثالثة (التأويل الذي يأتي في الدرجة الأولى، هو الذي يقدمه ابن الثقافة نفسه[50])؛ وبهذا المعنى فما هي إلا قَصص متخيلة، قصص بمعنى أنها "أشياء مصنوعة" (...)، ولا يعني ذلك أنها مزيفة، أو غير واقعية[51]". إن التحليل الثقافي في النظر الأخير، مجرد "تخمين للمعاني، وتقويم هذا التخمين، ورسم استنتاجات تفسيرية من التخمينات الفضلى، وليس اكتشاف «قارة المعاني»، ورسم الخرائط لأراضيها".[52]

تجريدية الثقافة، أو دراستها على أساس نمط مثالي بتعبير ماكس فيبر، وهو تماثل كبير الشبَه، تعني في المقام الأول "تنسيب" نظرة الأنثروبولوجي إلى موضوع دراسته، ولكنه ليس تنسيبا يفتح الباب على مصراعيه لأي تأويلات دون حدود أو ضوابط. يشدد غيرتز في مقال كتبه أواسط الثمانينيات بعنوان"ضد ضد-النسبية"[53]، أن القول بالنسبية لا يجب أن يُتخذ ذريعة لصرف الباحثين عن انتهاج طرق مبتكرة لفهم المجتمعات المحلية، ويدعو إلى الابتعاد عن النظريات العامة الشمولية، والتركيز على نماذجَ محلية موضعية لفهمٍ مجملٍ لتلك الثقافات. ولا داعي أن يتسرب إلى منهج الأنثروبولوجي، الاعتقاد أن "قوة تأويلاتنا تعتمد على شدة الترابط بين عناصرها"[54]، كما قد يوهمنا البنيويون.

رابعاً: شروط التأويل الثقافي

بعد أن طرح غيرتز نظريته حول التأويل الثقافي، عرج نحو الشروط الأساسية المساعدة على تطور النظرية التأويلية. وإذا شئنا التعبير بمنطق الاستحالات فهما شرطين اثنين:

أ- الشرط الأول: استحالة التعميم

يقودنا هذا الأمر إلى شرط أساسي في النظرية الثقافية، وهي أنها لا تملك أمرها، وليست هي سيدة نفسها(...)، وحيث إنه لا يمكن فصلها عن الأشياء الآنية المباشرة التي يقدمها التوصيف الكثيف، فإن حريتها

[50]- قام عبد الله حمودي بالتأمل النظري في العلاقة/المسافة التي ينبغي أن يعقدها ابن الثقافة حينما يدرسها، انظر: حمودي عبد الله، الرهان الثقافي وهمّ القطيعة، إعداد وتقديم محمد زرنين، جامعة محمد الخامس أكدال ودار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، 2011، ص 233

[51]- المصدر نفسه، ص 101

[52]- المصدر نفسه، ص 110

[53]- Geertz Clifford, «Anti Anti-Relativism», American Anthropology, vol. 86, no 2, (June 1984), pp 263-277

[54]- المصدر نفسه، ص 105

في التشكل بحسب إملاءات منطقها الداخلي، محدودة إلى حد ما[55]؛ فهناك "حاجة إلى بقاء النظرية نوعا ما أقرب إلى أرض الواقع"[56]، عكس بعض العلوم القادرة على الانغماس في التنظير التجريدي التخيُّلي.

يزيد من إلحاحية هذا المسلك طريقة تطور المعرفة التجريبية للثقافة، "إنها تتطور بشكل انبثاقات أو طفرات، وليس بشكل سلس مستمر؛ وهكذا نجد أن عملية التحليل الثقافي في تطورها، لا تتخذ شكل منحى صاعد، تتراكم فيه المكتشفات بشكل مستمر، بل هي تتخذ شكل اندفاعات غير متصلة، مع أنها مترابطة في سياق متوالٍ من الحلقات التي تزداد جرأة مرة بعد مرة. وهكذا نجد أن الدراسات تبني رؤيتها على دراسات سابقة، ولكن ليس بمعنى أنها تبدأ من حيث انتهت الدراسات السابقة/ وإنما بمعنى أنها تتسلح بالمعرفة المفهومية المتحصلة من الدراسات السابقة، لتغوص أعمق فأعمق في دراسة الأشياء ذاتها[57]. وهكذا يتخذ التحليل الثقافي خطّاً ينطلق من " فهم بدائي باتجاه الادعاء، بأن الدارس قد وصل إلى هكذا فهم وتجاوزه.[58]

الحصيلة إذن، أن الصياغات النظرية في النموذج التأويلي يجب أن تحوم على علوٍّ منخفض فوق التأويلات التي تخضع لسيطرتها، حيث إن التأويلات لن يمكنها أن تقدم كبير مغزى أو تحمل كبير أهمية إذا فصلت عن تلك الصياغات[59]. بتعبير آخر، إذا تم تبني الصياغات النظرية مستقلة عن تطبيقاتها؛ فهي تبدو إما عادية مبتذلة أو فارغة من المحتوى.[60] وعليه، لا توجد نظرية عامة للتأويل الثقافي، أقصى ما يمكن القول به هو إمكانية أن" يتخذ المرء خطا من المعالجة النظرية، جرى تطويره في ممارسة (إثنوغرافية) تأويلية معينة، ويستخدمه في ممارسة أخرى، حيث يدفعه إلى المزيد من الدقة في المعنى، والاتساع في المغزى والأهمية. الهدف في نهاية المطاف من بناء النظريات هو التمكن من إجراء التوصيف الكثيف[61] للخطاب الاجتماعي. والأمر هو أنك تفهم التأويل أولاً أو لا تفهمه، وإما أنك ترى الحكمة منه أو لا تراها، وإما تتقبله أو لا تتقبله.[62]

---

[55]- المصدر نفسه، ص 117

[56]- المصدر نفسه، ص 117

[57]- المصدر نفسه، ص 118

[58]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[59]- المصدنفسه، ص 119

[60]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[61]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[62]- المصدر نفسه، ص 116

ب- الشرط الثاني: استحالة التنبؤ

يحسم غيرتز بشكل قاطع، أن التأويل الثقافي لا يملك الصفة التنبؤية؛ ومن ثمة، فالصياغة النظرية المفهومية تتوجه نحو مهمة توليد تأويلات لقضايا واقعة راهنة[63]، أو بالأحرى توليد تأويلات مقنعة لها. الأهم هو الكشف عن تلك البُنى المفهومية الكامنة خلف أفعال الأشخاص الذين نتابعهم؛ أي «المقول» في الخطاب الاجتماعي، وإبراز المميزات المكوِّنة لها؛ أي ما يتعلق بالأشخاص، بوصفهم ما هم عليه"[64]. بهذا الاعتبار لا يكون التأويل الثقافي إلا ملاحظة بعدية.[65]

مع ذلك، لا ينفي هذا أهمية أن تظل تلك التأويلات فكريا، على قيد النفع، لتلائم الحقائق المقبلة.[66] إن التنبؤ بهذا المعنى الأخير ممكن، إذا جاز أن نسميه تنبؤاً، حيث يتم استعمال الأفكار النظرية أو الأطر التحليلية "عن دراسات أخرى ذات علاقة، وتطبيقها في إشكالات تأويلية جديدة؛ فإذا بطلت نفعيتها بالنسبة إلى إشكالات كهذه، يبطل استخدامها وتلقى جانباً، أما إذا استمرت نفعيتها، وكانت تقدم طرقاً جديدة للفهم، فإن استخدامها يستمر ويجري تطويرها.[67]

خاتمة:

في ختام هذا العرض التركيبي والتنظيمي العام لنظرية غيرتز التأويلية، لا بد من بيان وجه التمفصل بين الوصف الكثيف أثناء العمل الإثنوغرافي، والتأويل أثناء العمل النظري الأنثروبولوجي، وهذه نقطة تحسب لغيرتز الذي لم يفصل بين المستويين، إن لم نقل أنه أولى العمل الإثنوغرافي أهمية حاسمة؛ فالأول بعبارة غيرتز هو "الجسم"[68] والهيكل والوعاء الذي يضم ترسانة ثقيلة من المفاهيم المتداولة أكاديميا، من بينها: الرمز، العقيدة، روح الجماعة، الهوية، الطقس، النظرة إلى العالم، المعرفة المحلية، المقدس، التراث...إلخ[69]، وكلها مفاهيم تتعاضد لتمكننا من العثور على موطئ القدم[70] في الثقافة المحلية، دون أن تدّعي أنه الموطئ

---

[63]- المصدر نفسه، ص 120

[64]- المصدر نفسه، ص 122

[65]- المصدر نفسه، ص 120

[66]- المصدر نفسه، ص 121

[67]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[68]- المصدر نفسه، ص 123

[69]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[70]- المصدر نفسه، ص 97

النهائي. ثم ترفدها الكتابة الأنثروبولوجية التي تُعنى بصياغة القاعدة/المعنى[71]، وهو بدوره معنى غير مكتمل، مفتوح على إمكانات لا متناهية، وغير مقيدة بنماذج شمولية. ولا معنى لأي انفصال بينهما، ولا تقوم الثانية إلا على جودة ودقة الثانية. تضمن هذه الطريقة إضفاء التعبير العلمي الواضح على الأحداث التي تجري في الحياة. لقد تم ذلك بفضل انفتاح كليفورد غيرتز على البراديغم السيميائي الذي ينظر لكل شيء من حولنا على أنه في حالة بث غير منقطع للإشارات، حسب تعبير غريماس، وما علينا نحن المتلقين سوى إبداء النية في التلقي، لكي يشرع العقل في عملية معقدة، مفادها تفكيك الشبكات الإشارية للمعاني المحيطة بنا[72]؛ والسبيل حسب غيرتز، هو الوصف الكثيف.

[71]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[72]- الأحمر فيصل، معجم السيميائيات، الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، بيروت، 2010، ص 8

المراجع:

- الأحمر فيصل، **معجم السيميائيات**، الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، بيروت، 2010
- إيجلتون تيري، **فكرة الثقافة**، ترجمة شوقي جلال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2012
- حمّودي عبد الله، **الرهان الثقافي وهمّ القطيعة**، إعداد وتقديم محمد زرنين، جامعة محمد الخامس أكدال ودار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، 2011
- غيرتز كليفورد، **تأويل الثقافات**: مقالات مختارة، ترجمة محمد بدوي، مراجعة الأب بولس وهبة، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى، بيروت، 2009
- فرّو قيس ماضي، **المعرفة التاريخية في الغرب: مقاربات فلسفية وعلمية وأدبية**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، بيروت، 2013
- Cefai Daniel, «Anthropologie interpretative. Les perspectives esthétique, clinique et herméneutuque du Clifford Geertz», In D'Islam et D'ailleurs: Hommage à Clifford Geertz.(dir) Mohammed Kerrou, Cérès éditions, 2008, pp 15-47
- Geertz Clifford, «Anti Anti-Relativism», American Anthropology, vol. 86, no 2, (June 1984), pp 263-277
- One Discipline, Four Ways: British, German, French, and American Anthropology. By Fredrik Barth, Andre Gingrich, Robert Parkin and Sydel Silverman With a Foreward Chris Hann. University of Chicago Press, 2005

MominounWithoutBorders

@ Mominoun_sm

Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هـاتـف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com